المحاضرة (2): **الشعر الأمازيغي وأعلامه: سي محند أنموذجا**

تمهيد:

يعود الشعر الشعبي الجزائري أو ما يسمى بالشعر العامي (عكس الشعر الفصيح) إلى ما قبل القرن التاسع عشر؛ ويمتاز بالبلاغة والإبداع بحيث يعبّر الشاعر عن كل ما يخص حياة الإنسان المتقلبة، والصفات الحسنة والذميمة لعامة الناس على اختلاف تربيتهم وآرائهم؛ أضف إلى ذلك، التعبير عن كل ما له علاقة وطيدة بمحيط الإنسان. كما يتضمن الشعر الشعبي، في الغالب، أمثالا وحكما صالحة لكل زمان ومكان، والكثير من الصور البيانية والمحسنات البديعية. وقد ساهم الاستعمار الفرنسي الذي احتل الجزائر، في انبثاق لغة الشعر لدى العديد ممن نوّهوا بخصال الجزائريين الذين سعوا إلى التحرر من أغلال الاستعمار وعيش حياة رغيدة في بلد أجدادهم.

ويترجم الشعر الشعبي الجزائري نفسية سكان منطقة معينة من مناطق الجزائر، ويفسر سلوكاتهم حسب البيئة التي ينتمون إليها، ويعتبر هذا الشعر صادقا لأنه يتطرق إلى مشاكل الناس اليومية الناتجة عن التعايش بين مختلف شرائح المجتمع، ولأنه يتصل اتصالا وثيقا بالإنسان على مر العصور. ولا يشترط أن يكون الشاعر متحصلا على شهادات عليا لأن الشعر الشعبي نابع من تجارب الحياة والأحاسيس المختلفة والمتفاوتة التي تطبع الإنسان وتدفعه للتعبير عما يختلج في نفسه من حب، وكره، ووحدة، وفرح، وحزن .

يعتبر الشعر القبائلي، نوعا من أنواع الشعر الشعبي الجزائري، له أهميته في التراث الوطني، وتأتي كلمة Asefru بالقبائلية مرادفة لكلمة (شعر) باللغة العربية، وهي مشتقة من الفعل yesefra أي: "أوضح وبيّن ما كان غامضا". ويقول جون عمروش Jean Amrouche عن الشاعر القبائلي في مقدمة كتابه ما يأتي: "إن الشاعر القبائلي هو صاحب موهبة الشعر، بمعنى أنه جعل ما ليس واضحا، بيّنا ومعقولا....فهو يلعب دورا اجتماعيا معتبرا، وله رسالة مهمة للإيصال، وهو من بين ذلك بعيد الشدو، وصاحب بصيرة".

ويعدّ **الشاعر سي محند أومحند** أحد رموز الشعر الشعبي القبائلي، إذ ترجم البؤس والتشرد الذي طبع حياته في جميع أشعاره. وعاش سي محند فترة المقاومة الشعبية سنة 1871 م في منطقة القبائل، والتي أدت إلى تشريد أفراد عائلته، وإعدام أبيه، ونفي عمه وآخرين من عائلته إلى كاليدونيا الجديدة. أضف إلى هذه العوامل، حجز أملاك عائلة سي محند، مما جعل هذا الشاعر الثائر يعكس في أشعاره الألم الذي عاناه وما نتج عنه من تشرد، وضياع، ومغامرة بين منطقة القبائل، وعنابة، والبليدة، وتونس وغيرها .

تعريف وجيز للشاعر سي محند أومحند:

سي محند أومحند، واسمه الحقيقي محند حمادوش، شاعر وفيلسوف قبائلي، ولد حوالي سنة 1845 م في قرية أشرعيوين بمنطقة تيزي راشد (التابعة إداريا للأربعاء ناث إيراثن) بولاية تيزي وزو. حارب الاستعمار الفرنسي بشتى الوسائل بحيث حرّض سكان منطقته على الوقوف في وجهه والكفاح من أجل التحرر، ونتيجة لذلك، قامت السلطات الفرنسية باعتقاله وتعذيبه، ثم قامت بنفي أفراد من عائلته وأقربائه إلى كاليدونيا الجديدة. غير أن الشاعر سي محند ظل يدعو إلى التحرر من خلال أشعاره، والقضاء على الاستعمار الغاشم. وتوفي سي محند حوالي سنة1906 م بمنطقة عين الحمام بولاية تيزي وزو .

جمع بوليفة أشعار سي محند وترجمها في كتاب بعنوان (Recueil de poésie kabyle ديوان الشعر القبائلي) صدر سنة 1904 م. وقام الكاتب الجزائري مولود فرعون بانتقاء بعض منها وترجمها شخصيا في كتاب بعنوان (Les Poèmes de Si Mohand أشعار سي محند) صدر سنة 1960م. وبعد وفاة فرعون، قام الكاتب الجزائري مولود معمري بإتمام جمع هذه الأشعار في ديوان شعري صدر سنة 1969م بعنوان (Les Isefra de Si Mohand إسفرا سي محند)، ثم طبعة ثانية سنة 1982 م. ويذكر أن سي محند أو محند كان يلقي أشعاره عفويا، أي أنها لم تكن مقيّدة كتابيا في البداية. وهناك من يقول أن بعض هذه الأشعار تبقى مجهولة إلى غاية اليوم، وأن ما حظينا بمعرفته، يتمثل فقط في الأشعار التي قيّدها الأدباء والمختصون الذين تعرضوا للحياة الشعرية لسي محند.

إن تاريخ ميلاد سي محند ورد بالتقريب وذلك بسبب عدم اعتماد قانون الحالة المدنية في منطقة القبائل في ذلك الوقت؛ ومع أن السلطات الفرنسية منحت السكان فيما بعد بطاقات هوية وقيّدتهم في سجل الحالة المدنية بتواريخ ميلاد تقريبية، لم يستفد سي محند من هذا القرار لأنه حتما كان قد بدأ حياة التشرد.

كما يقول آخرون أن سي محند عاهد نفسه أن لا يلقي القصيدة نفسها مرتين، وأن من يهتم بأشعاره عليه تدوينها. حتى أنه ألقى أشعارا بالعربية ولكن لا يوجد لها أثر اليوم. وفي هذا الصدد، يقول مولود معمري: "إن الأدب الشفوي هو الذي يخلق شاعرا عالميا كـ:سي محند أومحند" ويتناول سي محند في أشعاره موضوعات عديدة كالمرأة، والوحدة، والتشرد، والألم، والحب، والتاريخ الأمازيغي، والقيم الاجتماعية، والكفاح ضد المستعمر الفرنسي.

الموضوعات الإنسانية في أشعار سي محند أومحند:

يقول أحمد جاب الله عن القصيدة الشعبية الجزائرية ما يأتي:" يقترب شكل القصيدة الشعبية الجزائرية في بنائها الفني من الخطبة أو الرسالة ولا سيما في افتتاحيتها فهي مزيج بين الشعر والنثر ، أخذت من الشعر إيقاعه وحافظت على القافية فكل القصائد الشعبية الجزائرية مقفاة، وأخذت من النثر خطابيته ومقدماته"وينطبق هذا القول على أشعار سي محند التي راعت النظام الشعري من وزن وقافية، من جهة، وحافظت على خطابية النثر ومحتوى الرسالة المراد إيصالها، من جهة أخرى .

وتقول تاسعديت ياسين ما يأتي: "ينبثق الإلهام الشعري أو الإبداع الفني لدى الشاعر أو الأديب أو الرسام من المصادر الآتية، وأهمها: الطبيعة، والفضاء، والزمن، والرحلات، والحلم، والخيال، والتجارب الإنسانية"ونجد كل هذه العوامل مجتمعة في أشعار سي محند أومحند الذي خلّف إبداعا غنيا لا يزال محل دراسة وتحليل وترجمة من المختصين المحليين والأجانب، في ميدان الشعر والترجمة وغيرها من الميادين المتصلة بها

ويطبع التشاؤم والبكاء على الأطلال أشعار سي محند أومحند بالرغم من ميزتها العاطفية التي تحوي أمثالا وحكما صالحة لكل زمان، وتجدر الإشارة إلى أن قصائد سي محند هي قصائد تساعية (أي تسعة أبيات) تتشكل من قافيتين: قافية للبيت الأخير في كل مقطع شعري، وقافية للأبيات المتبقية.

وأما أهمّ الموضوعات الإنسانية التي تناولها سي محند أو محند في أشعاره، نذكر ما يأتي :

-**المرأة والحب:** تغنى الشاعر القبائلي سي محند أومحند بالمرأة والحب، الأولى باعتبارها أساس الأسرة في المجتمع القبائلي، والثاني باعتباره شيئا افتقده نصف حياته. وتجدر الإشارة إلى أن سي محند تزوج شابا عندما كان أبوه حيا. ولكنّه طلّق زوجته لأن حماته حاولت تسميمه. وكان سي محند يحب امراة تدعى "فاضمة"، وكان يقتفي أثرها إلى "العين" حيث تجلب المياه. وعندما توفيت رثاها.

Temmut taazizt ur nemzir	لقد رحلت بعيدا عني
Lmut a tettextir	إن الموت يختار ضحاياه
Rebbi iteddu deg nneqma	والإله يدفع إلى الثوران
Ay akkal ur t tɣeyyir	يا أيتها التربة لا تشوهي
M laayun n ttir	جمالها الذي لا مثيل له
foumt as a lmuluka ɛTa	أيتها الملائكة ارفقوا بها
Dazawali ur tehqir	تلك الشابة شريفة النسب
D yellis n lxir	لم تزدر عبدك قط
Mahrumet si leǧehennama	لتبعدها عن نار جهنم

-**الغربة والحنين إلى الوطن:** عاش سي محند نصف حياته منعزلا وبعيدا عن مسقط رأسه. ويقول في إحدى الأبيات ما يأتي :

Aqlaɣ kullas net qellib	إننا نبحث كل يوم
Di tmura d aɣrib	في الأوطان غريب
Mennaɣ aw'isaan axxam	أتمنى لو عندنا بيت

-انهيار المبادئ الأخلاقية وتكسر البنية الاجتماعية في المجتمع القبائلي: تعرضت القرى القبائلية في القرن الرابع عشر للهجرة إلى التفكك، وتقهقرت المبادئ الأخلاقية ليحل محلها الفساد والرذيلة. وفي هذا الصدد، يقول الشاعر سي محند ما يأتي :

Ahya lqern asufaji
Widak nettehwiji
Win qesdeɣ ibeddel lkelma-s
Dlɣaci la ten-isgagi
Di lâid urten iǧǧi
Γadent iǧǧulent tullas
Wamma at sukarǧi
Nzant lemraǧi
Bu tyuga hat d axemmas

آهٍ من القرن المتوحِّش...
أولئك الذين نحتاج...
ومن قصدت غيّر كلمته
يهجِّر النّاس القرن
وفي العيد لم يتركهم
أُشفِق على الفتيات اليتيمات
بالنسبة للسكارى بِيعت الأراضي
وأصبح الفلاح خمّاسًا

-استبداد الحكام : عانى سي محند على غرار مواطنيه، جور المستعمر الفرنسي واستبداده، وفكّر في أن الحل يكمن في الهرب بعيدا، أي الاغتراب. وقد قال في هذا الشأن ما يأتي :

Gulleɣ seg Tizi-Wezzu
Armi d Akeffadu
Ur hkimen dg' akken llan
A nerrez wal' a neknu
wessuɛɛAxir dda
Anda ttqewwiden ccifan
D elɣurba tura degg' qerru
Gulleɣ ar nenfu
quba ɣer yilfan ɛWala le

أقسمت أنه من تيزي وزو
إلى أكفادو
لا أحد سيجبرني على الانقياد لحكمه
الانكسار خير من الذل
اللعنة أفضل من
البقاء في بلد حكامه مستبدون
إن الغربة مكتوبة على الجبين
أقسمت على الذهاب بعيدا (المنفى)
خير من البقاء وسط المستبدين

-عدم الرضى والبحث عن السعادة: إن حياة التشرد والتنقل من مكان إلى آخر، أدت بسي محند إلى البحث الدائم عن الاستقرار والسعادة لعدم رضاه عن الواقع المرير. ويقول في هذا الشأن ما يأتي :

ceq yemxallafɛZiɣen la
Ifreq d lesnaf
Kulwa dakken itmehhen
11. M. Feraoun, 1960: 51.
12. Y. Nacib, 1993: 103.
Abaad izehhu s lektaf
Zzehr-is yullaf
Iqqim netta d waazizen
Abaad meskin hat yenhaf
Dayen yebɣa ur t ittaf
S lehlak is d Rebbi g elmen

لا يمكن لأي كان أن يتكهن بما في القلوب
من حب يملئها
وكم من العذاب تقاسيه
يحب الواحد منا بكل ما أوتي من كمال
يصير ذلك المحبوب
الذي لا يفترق عن محبوبه مهما صار
بالنسبة للبعض هي معاناة
و توق إلى المستحيل
و حده الله يعلم كم يتعذب

- **التشرد:** لعل أهم لقب منح للشاعر سي محند هو "الشاعر المتشرد". وقد أشار في شعره إلى بعض رحلاته كتلك التي قام بها سيرا على الأقدام (يقال أنه كان دائما يتنقل سيرا على الأقدام) من الحراش في الجزائر العاصمة إلى ميشلي في ولاية تيزي وزو إذ يقول ما يأتي:

Si Lharach armi d budwaw
Ixerrav ettaviaw
Bwiɣ abrid si timci
Recdeɣk al fahem amusnaw
Tcev lmahnaw
Tzed ɣef meddan irkuli
Tennat I lkif d aselaw
Iveddal suraw
Ma d achiv dugi attwali

من الحراش إلى بودواو
نفسيتي تدهورت كثيرا
تنقلت راجلا
إني أرشدك أيها الحكيم
محنتي طبعها الشيب (أعاني لسنوات(
والناس كلهم يعانون
أصبح الحشيش مؤنسي
وغيّر صورتي
لكن الشيب لم يفارقني

وهكذا يواصل سي محند وصف رحلته التي زار فيها مناطق أخرى من الجزائر على غرار الثنية، وبرج امنايل، ولعزيب، وتادمايت، وبوخالفة، وغيرها وصولا إلى ميشلي حيث التقى أصدقائه بعد مرور زمن طويل. ويذكر في كل الأبيات حالته النفسية التي تتغير من منطقة إلى أخرى، والتي يطبعها التشاؤم غالبا .

-**المرض:** تحدث سي محند عن موضوع المرض في شعره. ومن خلال قراءتنا لقصيدة تناولت هذا الموضوع، استنتجنا أن سي محند كان يتحدث عن المرض النفسي الذي يلازم الإنسان ما دام يحيا حياة شقاء وعزلة. وهذه الأبيات مثال عن ذلك:

كل واحد منا يحب ذبح أضحية

بغية التخفيف من مرضه

غير أن المرض الذي أصابني خاص جدا
ولم يسمع به أحد
لا الرجال (الكبار) ولا الأطفال (الصغار)
إلا من لديه فكر ثاقب
أنت يا إلهي ترى كل شيء
وتعرف من يعاني الشقاء
إنني أنتظر العون منك.

–التحسر على الأصدقاء الذين اختفوا وقت الحاجة: تحدث سي محند أومحند عن الناس الذين عرفهم في فترة من فترات حياته، ثم أداروا له ظهرهم عندما كان في أمس الحاجة إليهم، فقال:

لقد غلبت من بلد أبي
هرب من كان يعرفني
نفيت إلى بلاد الغربة هلاّ بكيتم أيها الطلبة
ذوو العقول المستوعبة
وكثرت المحن لا تعرف الفرحة إلي طريقا:

–**اليهود:** نجد في أشعار سي محند إشارة إلى غدر اليهود الذين عمّروا في منطقة القبائل قبل الاحتلال الفرنسي وبعده. وعندما حصل اليهود الذين كانوا عملاء لفرنسا في الجزائر، على الجنسية الفرنسية بموجب قرار كريميو (Crémieux) سنة 1870 م، عمّ الإحباط في أوساط سكان منطقة القبائل بحيث صاروا أسيادا عليهم، هم الذين يعيشون الذّل والحرمان في بلدهم بينما كان اليهود يتمتعون بالخيرات والعيش الهنيء. وفي هذا السياق، قال سي محند في إحدى قصائده ما يأتي :
وجدت يهوديا في الحامة اسمه مردخه– عليه بادية أمارات الثراء عندما كان يقتات ببيع الرديء – كنت له معينا ولأخواته مساعدا – أما وقد شيّد قصرا ففي ركب النصارى سائر – ناسيا ماضيه البئيس.

–توحيد الخالق وتعظيمه: تعلم سي محند أومحند القرآن في زاوية سيدي عبد الرحمان في صغره، ولكن قد يستغرب الواحد منا بأن هذا الشاعر الذي نقلت عنه مختلف الروايات بأنه كان يتعاطى الحشيش والخمر، قد تناول في أشعاره عظمة الخالق ودعاه إلى تخليصه من الأزمات التي توالت في حياته المتشردة. وهذه الأبيات مثال عن ذلك في قوله:
سبحانك إلهي يا واحد يا أحد – من واجبنا أن نحمدك ونتقبل إرادتك – في الماضي، عندما كنت محظوظا – كنت أرتل القرآن ولكل حرف أعطي معناه – الآن وأنا في الحضيض – لجأت إلى الحرام برغبتي – وأعلم علم اليقين أنني مائل عن الطريق المستقيم
هذه إذن بعض الموضوعات الإنسانية التي تناولها سي محند أومحند في أشعاره. ونشير إلى أن معظم الأشعار ، تحتوي على مفردات باللغة العربية أو باللغة الفرنسية، وهذا راجع إلى تأثر اللغة الأمازيغية بهاتين اللغتين.

خاتمة :

يبقى سي محند أومحند شعلة تضيء الأجيال. ورغم مرور أكثر من مائة عام على رحيله، لا يزال "الشاعر الجوّال" محل دراسات وندوات وأبحاث تعنى بإبراز التراث الشفوي الذي تركه لنا لنستقي منه تجارب الحياة، وغدر الزمان، ودروس المحن والاستفادة منها. وكما يقول المثل الشعبي: "سل المجرب لا تسل طبيب" (أي: اسأل المجرب لمحن الدهر ولا تسأل الطبيب)، إذن سي محند الذي جرّب الحياة بحلوها ومرّها، كان مرآة عكست السعادة والشقاء، والنجاح والفشل، والإيمان والقنوط. ليس فيما يخصه فقط، بل فيما يخص كل أفراد المجتمع مهما كانت توجهاتهم.